المصدر: الشرق الاوسط
التاريخ : ٢٤ اكتوبر ٢٠٠٥

حول سوريا «السورية»

عبد العزيز الخضر

كانت المفاجأة المنتظرة من تقرير ميليس الأولى معكوسة، فعدم وجود إشارات لتورط سوري هو المفاجأة الحقيقية، لكن الذي قدمه التقرير للجنة الدولية الأولى هو تأكيد لكل الظنون والشكوك التي انطبعت مباشرة في الأذهان بعد حادثة اغتيال الحريري، فلم يخالف التوقعات العامة إلا في تقديمه لتفاصيل مطولة ومثيرة وتسلسل للأحداث مشابه للأعمال الروائية الكبيرة. الآن ليست مشكلة سوريا الدخول في مناقشات مطولة حول التفاصيل التي قدمها التقرير والتي سيقدمها في المستقبل، وليست مشكلتها في وجود مؤامرة خارجية لتوريط دمشق واستهداف النظام، بقدر ما أن مسرح الجريمة منذ بدايات الحدث لا يسمح للتفكير بمسارات بديلة لتخيل جناة بعيدين عن التوقعات الأولية التي كان الترقب العام بانتظار مفاجئة تقلب هذه التكهنات، ولهذا نسي الكثيرون مباشرة قصة شريط قناة الجزيرة وأبو عدس، وكشف التقرير المحاولة الفاشلة في التضليل عبر هذا الشريط. ومع أن هذا التقرير هو بداية، إلا أنه قدم مؤشرات بعد حذف أسماء هامة على أن القادم لن يقل خطورة.

السؤال الأهم بعد الاشتباه بأسماء كبيرة، هل هناك امكانية لاحتواء الأزمة عمليا، فالذي قدمه هذا التقرير هو خلق مزيد من التعقيد والقلق في تصور الأزمة، وقلص قدرة سوريا على ابداء مرونة متأخرة. الهم العربي الحالي ليس الحديث عن مصداقية التحقيق الدولي وإنما في كيفية الخروج من هذا المأزق الذي صنعه سوء الاداء السياسي السوري مع متغيرات المرحلة، والوهم باستمرار أهمية الدور الإقليمي السابق. هناك حرص عربي مؤكد على استقرار سوريا لكن هذا الحرص لن يكون حتما على حساب الحقائق ومواجهة المجتمع الدولي، والمحاولات التي تظهر لامتصاص الأزمة مرهونة بتعاون سوريا وكيفية مواجهتها لهذه التحديات والتطورات المتسارعة، بعد تزايد ملامح الارتباك الدبلوماسي الخارجي والإعلامي في تعامل دمشق مع طبيعة هذه المرحلة.

الكثير من الأحداث الغامضة التي صدم بها العالم كشفت حجم الضغوط المتنامية على

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

سوريا من الولايات المتحدة وأوروبا، وأن زلزال ميليس ما زال مؤثرا وبقوة متنامية مع الوقت، وقد يؤدي إلى تطورات حول مشكلات تفصيلية مغيبة زمنا طويلا في الشأن الداخلي السوري. هذا التحول الإعلامي الذي نشهده هو انتقال جديد في الاهتمام بقضايا سوريا الإقليمية بشأن العراق ولبنان إلى قضايا سوريا الداخلية في ادارة السياسة والقوى المؤثرة بالقرار الداخلي. مشكلة هذه الضغوط المستمرة أنها لا تهدف إلى تغيرات محدودة وشكلية، ولهذا تظاهر الكثيرون بعدم فهم المطلوب من سوريا. هذه الضغوط مؤشر على خلق خارطة سياسية جديدة تنقل سوريا من تأثيرها الإقليمي التي كان لها دور محوري في كثير من مشكلات المنطقة إلى سوريا المحصورة في شؤونها الداخلية.

هل هناك مؤامرة على سوريا أم أن هناك أخطاء في تقدير ظروف المرحلة تغيرت معها موازين القوى في خارطة المنطقة بعد التواجد الأمريكي في العراق. نموذج العراق السلبي بالتأكيد اثر على تصورات التغيير في المنطقة عند العالم والولايات المتحدة. فلا أحد يرغب بتكرار هذا النموذج المخيف من الفوضى في التغيير حتى عند أشد المتحمسين في معارضتهم للأنظمة العربية، وحتى الولايات المتحدة، يدرك الكثيرون أنها ليست مندفعة للتدخل العسكري وإنما ترغب في احداث تغيير في النظام وليس زعزعة النظام، تجنبا للفوضى.

ما كان يميز سوريا لعقود طويلة هو دبلوماسيتها الخارجية وقدرتها على امتصاص العديد من الأزمات، لكن انقلاب الرأي الدولي منذ القرار 1559 وتداعياته المؤثرة على الشارع العربي صنع مناخا ملائما لتحولات جذرية في الوعي حول ضرورة التغيير والإصلاح العربي دون استثناء لأي دولة. فقدت الأنظمة العربية حصانتها الإعلامية ضد النقد حول أخطائها السياسية، بما فيها سوريا، ونشهد حاليا تغيرا حقيقيا في خطاب الإعلام العربي الفضائي ونخبه في فهم المشكلات الإقليمية، والكثير من النخب العربية تغير خطابها السابق والمجامل حول سوريا، وزال بريق النضال وموقفها في تحقيق السلام العادل في العقد الماضي، فمن لم يقدم نقدا حادا، تخلى عن اللغة الاعتذارية لمواجهة هذه الضغوط. وأصبح المتعاطف غير قادر على تقديم خطاب عقلانى في الدفاع عن أدائها السياسي.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

من الخطأ تصوير هذا الانقلاب في الرأي من هذه النخب بأنه ضد سوريا وأنها مجرد ابواق تتحدث لمصلحة أمريكا أو اسرائيل، فالأكثرية منهم تنطلق من رغبة جادة وحقيقية باستقرار البلد، وتخشى وتعارض أي تداخلات خارجية. فالدافع لهذا التحول في الخطاب هو جزء من اتجاه عربي عام في المطالبة بالإصلاح لكل الأنظمة العربية، وهذا الخطاب النقدي يمثل مناخ المرحلة حول ضرورة التغيير السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وليست موجهة لدولة دون غيرها. كثير من المبررات التي كانت تفسر تأجيل أي اصلاحات بحجة مواجهة اسرائيل او الوقوف ضد الإمبريالية فقدت وهجها حاليا، وأصبح المواطن العربي يعيش في عالم بلا جدران يطلع على كل شيء مع تطور تقنية الاتصال، بعد ما كان مجبرا على سماع خطب رسمية في زمن مضى. هذا التحول الحقيقي فرض على كثير من الأنظمة العربية ممارسة قدر من التكيف مع هذا التغير وتقديم بعض الإصلاحات التي يختلف مستواها من دولة إلى أخرى، إلا أنها كانت كافية عند بعض الدول لامتصاص التأثيرات السلبية على استقرارها.

كثير من المراقبين يرون أن سوريا لم تستفد من معركة الإصلاح التي كانت متاحة قبل سنوات مع بداية عام 2000م ثم جاءت تطورات الوضع الإقليمي لتضيق مساحة المناورة السياسية يوما بعد يوم. فالانطباع السائد الآن في المجتمع الدولي أنها لم تحدث حراكا اصلاحيا مطمئنا يساعد الآخرين في الدفاع عنها، لهذا فالتحدي الذي تستطيع دمشق مواجهته هو التفكير بجدية للعمل على تغيير هذا الانطباع السلبي ، من خلال ابداء مرونة حقيقية والتعاون مع المجتمع الدولي وتطوير الخطاب الإعلامي، وتقديم مبادرات اصلاحية جادة بين فترة وأخرى ، بعد أن أصبحت مع تطور الأحداث تحت ضوء الإعلام العالمي من خلال التغطية الإخبارية والمتابعات المتنوعة للوضع الأمني والسياسي للتنبؤ بمصير سوريا السورية.

www.ethraadl.com